الفجر

العدد الرابع - حزيران ٢٠١٣ - رجب ١٤٣٤

العلم والدين وإشكالية التعارض

إبراهيم العلبي

الخطاب الواجب الغائب

أحمد أبا زيد

ماذا بعد المجزرة؟

خاص للفجر

ملك الثوار

معتصم الحريري

الفجر
العدد الرابع - حزيران ٢٠١٣ - رجب ١٤٣٤

مجلة شهرية تصدر عن
مكتب الشباب في جماعة الإخوان المسلمين
في سورية

المحتوى

3 الافتتاحية

5 شخصية الرسول التعليمية صلى الله عليه وسلم
عبد الفتاح أبو غدة

6 ماذا بعد المجزرة؟
الفجر-خاص

8 الأخوة
محمد الشامي

11 الذين أوتوا العلم والإيمان
عامر الغضبان

13 العلم والدين وإشكالية التعارض
إبراهيم العلبي

15 الخطاب الواجب الغائب
أحمد أبا زيد

20 الشيخ عبد الفتاح أبو غدة «رحمه الله»
محمد عادل فارس

23 قصص من واقع الثورة
عبد الكريم اليماني

24 ملك الثوار
معتصم الحريري

26 دعوة للقراءة: طاحون الشياطين
شريف الراس

27 خمسون عاماً في سوريا
أنس الدغيم

:: فريق التحرير

حسام الغضبان	رئيس التحرير
عمار يحيى الضايع	محرر
د. عامر الغضبان	محرر
أسامة السيد عمر	محرر
عبد الكريم اليماني	محرر
أسامة الشيدون	الطباعة والتوزيع
أنس حسين	الطباعة والتوزيع
منى السعيد	التسويق الإلكتروني

تصفح الفجر
www.alfajrmg.net

تواصل مع الفجر
alfajr.mg@gmail.com

تصميم وتنفيذ
SYRIA 3D

المقالات المنشورة تعبر عن رأي كتابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة أو هيئة تحريرها

دور الفرد في تكوين ثقافته

:: التحرير

حالة الموت السريري التي أدخلتنا فيها أنظمة الفساد التي استبدت بحكم بلادنا بدأنا الخروج منها –بحمد الله تعالى– مع تفجّر ثورات الربيع العربي، والصحوة المرافقة لها، والشعور المتولّد عند كل واحد منا بأنّ له دورا لا بدّ أن يقوم به، وأن يشارك في بناء أمته، ويكون فاعلا فيها.

وحالة الوعي هذه المرافقة لحالة الثورات كما كشفت عن مواطن قوة فينا كنّا في غفلة عنها، كشفت أيضا مواطن ضعف لم نكن ندرك مدى عمقها وتأثيرها، ومدى صعوبة الخروج منها.

لقد عملت أنظمة الفساد على إفساد جميع البنى «الفوقية» للمجتمع، البنى المنوط بها تكوين ثقافة الفرد ووعيه الفكري ونظرته إلى الحياة ودوره فيها، فأفسدت النظم التعليمية وكرستها لتدجين الشعب، وحجّمت دور المساجد وقيدتها لتكون مجرد دور للعبادة، وحوّلت الإعلام إلى مؤسسة لتغييب الوعي وتمجيد السلطة وتشويه المجتمع وحياته؛ وكل ذلك كان له أثر كبير على الأسرة –المحضن الأول والأهم للفرد ومنبت ثقافته وفكره– التي كانت تنافح وتقاوم لتنجو من السهام المصوبة نحوها، ولم تكن النجاة باليسيرة.

ومع تفجّر الثورة المباركة وانعتاق الناس من سلطان هيبة النظام، قامت جهود مباركة في المجتمع تسعى لرأب هذه الصدوع التي خلّفها النظام بعد نصف قرن من الحكم الفاسد، فظهرت مؤسسات التفتت إلى أهمية العمل التربوي، فأقامت مدارس في مواطن النزوح أو اللجوء، ونقّحت المناهج التعليمية من بعض ما فيها من أدران، حلاً مؤقتًا إلى أن يمكن وضع مناهج جديدة؛ وأنشئت بعض مراكز البحوث والدراسات، ومراكز لدورات التوعية والدورات التخصصية في مجالات شتى، كالدعوة والإعلام والسياسة والتربية؛ وصدرت بعض الصحف والمجلات والنشرات؛ وتأسست بعض الروابط ومؤسسات المجتمع المدني، كروابط العلماء والفنانين والإعلاميين؛ وانتبه عدد من المشايخ إلى ضرورة الدعوة المباشرة والفتيا، فكرسوا أنفسهم للتنقل من مسجد لآخر ومن قرية لأخرى، يعقدون الدروس ويجيبون عن أسئلة الناس... إلخ

وعلى الرغم من أن هذا الحراك صار واضحا جدا، وعلامة فارقة من علامات ثورتنا المباركة، إلا أن الساحة ما زالت تستوعب مزيدا من هذه الجهود الطيبة، والمجتمع ما زال عطشا لمن يبلّ صداه؛ إذ إن هذه المؤسسات لم تستطع أن تغطي إلا فئات قليلة، ممن أمكنها الوصول إليهم، أو أسعفتها إمكاناتها لسد حاجاتهم.

لكن يجب ملاحظة أن ما سبق لا يغني عن دور الفرد نفسه في تكوين ثقافته وتنمية وعيه ومعرفته، ولعل العبء الأكبر يقع عليه، وليست تلك الجهود والمؤسسات إلا عوامل تساعده في بناء ذاته.

نعم، إن على كل فردٍ منّا مسؤولية تجاه نفسه، إصلاحها وتثقيفها وتنميتها، والمرء إذ يصلح نفسه فإنه يساهم في بناء مجتمعه بناء سويّا، فما لِبنات الأمة إلا أفرادها، إن صلحوا صلحت الأمة، وإن فسدوا فعليها السلام.

ولقد يُسّرت وسائل المعرفة في عصرنا أيما تيسير، خصوصا مع اتساع نطاق النشر الإلكتروني، وانتشار الوسائط الإلكترونية من حواسيب وهواتف ذكية وغيرها، فضلا عن انتشار الكتب وأن أسعارها باتت معقولة، بعد أن كان المرء يضطر للتوفير من راتبه شهرا إثر شهر ليشتري كتابا واحدا!

فلا يقعدنَّ الكسل بنا أن نثقّف أنفسنا، فمواقع الإنترنت مليئة بالكتب الإلكترونية التي يمكن تحميلها بسهولة، وذلك في كل علمٍ من العلوم، فضلا عن المقالات المبثوثة فيها، خصوصا في المواقع التخصصية.

كما أن موقع يوتيوب يزخر بآلاف المحاضرات، وبعضها محاضرات جامعية على درجة عالية من التخصص والحرفية، فضلا عن الدروس القصيرة التي يعقدها بعض الهواة في موضوعات شتى، إنسانية أو علمية أو ثقافية أو تقنية.

ومن الأفكار الجيدة التي يقوم بها بعض الناس، خصوصا من كان وقته ضيقا لا يتسع للتفرغ للقراءة والدراسة: تحميل مواد صوتية، كالمحاضرات أو الندوات أو الدروس أو بعض الكتب المقروءة التي يجدونها في مواقع شتى على الإنترنت، ورفعها على هواتفهم أو حوافظ الـ«سي دي» أو الـ«يو إس بي» أو غير ذلك، بحيث يمكنهم سماعها وهم ينجزون أعمالهم أو يقودون سياراتهم؛ مع مراعاة أنها ليست كالقراءة المباشرة أو الدراسة المتأنية.

ويجب التأكيد على الحرص على جودة المادة، والبحث عن المواد التخصصية التي يقدّمها أصحابها بموضوعية وحرفية علمية، ففي الإنترنت الغثُّ كما فيه السمين، وهذا يحتاج بعض الجهد في البحث، وتحري المواد المنصوح بها.. وهذا أيضا يمكن التحقق منه ببعض البحث عن الآراء المتداولة عن المادة نفسها، إن كان منصوحا بها أم غير ذلك.

هذه أفكار بسيطة يمكن للمرء القيام بها بنفسه، مع التأكيد أنها لا تغني عن التلقي عن متخصص عارف بدقائق العلم وتفريعاته وخباياه، أو الدراسة المتأنية المتدرجة التي تبني حجرا على حجر.

إن على المرء نفسه واجب بناء ذاته وتنمية معارفه وتوسيع مدارك ثقافته، فلا يألُ جهدا دون ذلك، ولا يقعد به الكسل عن نصرة مجتمعه بإصلاح نفسه، فإنه أقل مطلوب.

والحمد للّه رب العالمين

شخصية رسول الله التعليمية

صلى الله عليه وسلم

عبد الفتاح أبو غدة

[من كتابه: الرسول المعلم]

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرأفة والرحمة، وتَرْكِ العَنَتِ وحُبّ اليُسر، والرِّفق بالمتعلِّم، والحِرصِ عليه، وبَذْلِ العلم والخير له في كل وقت ومناسبة: بالمكان الأسمى والخُلُقِ الأعلى قال الله تعالى: «لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ» [التوبة: ١٢٨].

وروى البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري، عن مالك بن الحُوَيرث رضي الله عنه، قال: «أَتَينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن شَبَبَةٌ مُتَقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله رَحيماً رَفيقاً، فلما ظَنَّ أنّا قد اشتَقْنا أَهلنا، سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه، قال: ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلِّموهم ومُروهم، وصلّوا كما رأيتموني أصلّي، فإذا حضرتْ الصلاة، فليُؤَذِّن لكم أحدُكم، ولْيَؤمَّكم أكبركم».

وروى الترمذي في الشمائل عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَسْرُدُ كسَرْدِكم هذا ولكن كان يتكلم بكلامٍ بيِّنٍ فَصْل، يحفظه من جلس إليه».

وروى فيها أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعيدُ الكلمة ثلاثاً لتُعقَلَ عنه»...

وروى الترمذي في الشمائل أيضاً عن الحسن بن علي، قال: قال الحُسين بن علي: سألتُ أبي –علي بن أبي طالب– عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في جُلسائِه فقال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائِم البِشْر، سَهْلَ الخُلُق، ليِّن الجانب، ليس بفَظٍّ، ولا غليظ، ولا صَخّاب، ولا فَحّاش، ولا عَيّاب، ولا مَدّاح، يتغافَلُ عما لا يشتهي، ولا يُؤْيِسُ منه راجِيَهُ، ولا يُخيبُ فيه.

قد تَرَكَ نفسه من ثلاث: المِراء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذُمُّ أحداً ولا يَعيبُه، ولا يطلُبُ عَوْرَتَه، ولا يتكلَّم إلاّ فيما رَجا ثوابه.

وإذا تكلَّم أطرَقَ جُلساؤه، كأنَّما على رؤوسهم الطَّيرُ، فإذا سكتَ تكلَّموا، لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلَّم عنده أنصتوا حتى يَفرُغ. حديثُهم عنده حديث أوَّلِهم. يضحكُ مما يضحكون، ويتعجَّبُ مما يتعجَّبون منه.

ويصبِر للغريب على الجَفْوَةِ في مَنْطِقِه ومَسْألَتِه، حتى إنْ كان أصحابُه ليَستجلبونهم. ويقول: إذا رأيتم طالبَ حاجةٍ يطلُبها فارْفِدوه. ولا يَقبَلُ الثناء إلاّ من مُكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور، فيقطعُه بنهيٍ أو قيام».

وكان صلى الله عليه وسلم يُعطي كل واحد من جُلسائه وأصحابه حقَّه من الالتفات إليه والعناية به، حتى يظُنَّ كل واحد منهم أنه أحبُّ الناس إلى رسول الله. روى الترمذي في الشمائل أيضاً عن سيدنا علي رضي الله عنه في وصفه لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «كان يُعطي كل جُلسائِه بنصيبه، لا يحسب جليسه أنَّ أحداً أكرم عليه منه».

ماذا بعد المجزرة؟!

:: الفجر-خاص

ماذا بعد المجزرة؟

لن أوجه هذا السؤال للساسة والزعماء، ولا للباحثين والمحللين. سأسأله لنفسي: من أنا؟ وكيف سأكون؟ وماذا سأفعل بعد المجزرة؟

ماذا أصابني عندما حدثت المجزرة؟ ماذا أسمي مشاعري بعدها؟ أسى غضب نقمة، ضياع...

وبعد؟ ماذا بعد؟

بعد هذه الحالة التي لا يمكن وصفها، يعيد المرء الأسئلة الكبرى عن وجوده وحياته، يسأل عن المغزى من حدوث هذه المصائب العظمى، وعن الحكمة من وجود هذا الخلق الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء.

وهو السؤال الذي سألته الملائكة: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء...» [البقرة: ٣٠]، فأحالهم الله تعالى لعلمه، وذكرهم بحكمته في كل ما يقضي ويحكم.

ونحن من البشر الذين قضى الله تعالى إيجادهم على هذه الأرض، رأينا بأعيننا سفك الدماء، فعرفنا الاختبار الذي أراد الله تعالى لنا أن نمر به، وأصبح علينا أن نختار، هل نقر لمن سفك الدماء بجريمته، ونرضى بطغيانه، ونطيعه ونتبع سبيله، أم نكون من الذين يسعون في تحقيق حكمة الخالق بالخلافة في الأرض، فنقيم ميزان القسط، ونكون من الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون.

وحين نسعى في الخلافة كما يحب الله تعالى، ووفق الشرع الذي ارتضاه لنا، نذكر أن الجزاء العادل مكفول لكل العاملين، المصلحين والمفسدين.

الجزاء العادل؟ ما الجزاء الذي يستحقه هؤلاء المجرمون السفاحون؟ ربما لا نستطيع وصف هذا الجزاء، لكننا واثقون أنهم سينالون ما يستحقون، وما ذكره الله تعالى من عذاب الظالمين هو للإنذار والتذكير، أما تفصيل ذلك فلا نستطيع تصوره أو وصفه، والله تعالى يخبرنا عن أولئك بقول مجمل: «إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق» [البروج: ١٠]. وقد رأينا في الدنيا عقوبة كثير من الباغين، وآمنّا أن الله لا يعجزه أحد، ولا يغلب قضاءه مغالب.

ونعود لأنفسنا، لقد عزمنا أن نكون مع حزب الذين يسعون لرضا الخالق سبحانه، ولإصلاح الأرض كما يريد الله تعالى، لكن بعد هذه الحوادث سنكون في هذا الطريق ببصيرة أوضح، وإرادة أقوى.

كنا نتحدث عن أهمية الصبر، فاختبر الله صبرنا.

وكنا ندعي أننا لا نخاف الموت، فأرانا الله الموت بأعيننا.

ولنلمس الحكمة من ذلك، لا بد أن نذكر أن هذه الحوادث تمت بعلم الله تعالى، يراها ويسمع ما يكون فيها من أصوات، والله تعالى يخبرنا أن من حكمه في ما يصيب المؤمنين من شدة وبلاء «ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين» [آل عمران: ١٤١].

تمحيص المؤمنين يكون بتمييز الذين يثبتون من الذين ينقلبون على أعقابهم.

ونحن لا نريد أن نكون من الذين ينقلبون على أعقابهم، ونعوذ بالله من ذلك.

فإن تحقق منا الثبات، فإن الجزاء مضمون مكفول، والله يحب الصابرين، وسيجزي الله الشاكرين.

سأبقى إذن مع المؤمنين، أنا مؤمن بالله تعالى، راض بالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، قبل أن يقتل أحبائي، وبعد أن قتلوا. على طريق الذين ثبتوا مع الأنبياء، ورجاء اللحاق بهم، لننال ثواب الدنيا، بحفظ الدين ونصر المؤمنين، ثم لننال حسن ثواب الآخرة.

لقد أصبحت بعد هذه الحوادث أرجو لمن صبر في هذا المصاب العظيم أعلى الدرجات، وأبشر الصابرين بعظيم المنازل، وأتمنى أن أكون معهم في هذا الفضل، والأمر يحتاج صبر ساعة، وقرار لحظة، فيا رب تقبل من الصابرين صبرهم، واجز الشاكرين ثواب شكرهم.

والوعد الآخر قادم، سيمحق الله الكافرين، أليس وعد الله؟!

إني أثق أن هؤلاء الجنود الذين يرضون أن يتحولوا إلى قتلة أطفال خدمة لطاغوتهم سينالون عذابهم، والأمر لله تعالى في تقدير كيف ومتى يكون ذلك، لكن الله تعالى أعلمنا أن جنود فرعون ألحقوا بفرعون في عذاب الدنيا وعذاب الآخرة:

«واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين» [القصص: ٣٩-٤٢].

وماذا بعد؟

إن أعطاني الله الصبر لأبقى مع المؤمنين، سأسعى لجهاد الظالمين بقوة أشد، وسأنصر المستضعفين بعزم أمضى، سأقوي إرادتي فلا أتثاقل أبداً، وسأسدد اجتهادي فلا أكرر أخطائي، وسأخلص نصيحتي لأثبّت المؤمنين، وأجمع العاملين.

والله مع الصابرين.

الأخـــوة

:: محمد الشامي

الحمـد لله رب العالمـين، نـاصر المؤمنـين ومـذل الكافريـن، الحمـد لله عـلى نعمـة الإسـلام وعـلى نعمـة الأخـوة في الديـن وأصلي وأسـلم عـلى المبعـوث رحمـة للعالمـين سـيدنا وقدوتنـا وحبيبنـا محمـد المصطفـى رسـول رب العالمـين وعـلى الآل والأزواج والأصحـاب ومـن سـار بهديـه إلى يـوم الديـن.

امتـن الله تعـالى علينـا بالأخـوة في الديـن فقـال: «وَاذْكُـرُوا نِعْمَـتَ اللَّهِ عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنْتُـمْ أَعْـدَاءً فَأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِكُـمْ فَأَصْبَحْتُـمْ بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانًـا وَكُنْتُـمْ عَـلَى شَـفَا حُفْـرَةٍ مِـنَ النَّـارِ فَأَنْقَذَكُـمْ مِنْهَـا» [آل عمـران: ١٠٣]

وقـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: «الديـن النصيحـة» قلنـا: لمـن يـا رسـول الله؟ قـال: «لله ولكتابـه، ولرسـوله، ولأئمـة المسـلمين، وعامتهـم» [مسـلم].

بعـض النـاس يلـج في أعـراض المسـلمين، ويتهمهـم بأنهـم لا يحسـنون النظافـة أو يجهلـون بعـض اللباقـة أو أنهـم يجهلـون فـروع الديـن؛ والنيـل مـن أعـراض المسـلمين أمـر خطـير وليـس عليـه سـنة النبـي صـلى الله عليـه وسـلم الـذي قـال: «المسـلم مـن سـلم المسـلمون مـن لسـانه ويـده والمهاجـر مـن هجـر مـا نهـى الله عنـه» [الشـيخان].

وأمرنـا ببـذل النصيحـة وسـماها دينـاً، وحثنـا عـلى سـتر المسـلم وإعانتـه والتبسـم في وجهـه...

وفي ذلك أوضح ما يلي:

طـاف النبـي صـلى الله عليـه وسـلم بالكعبـة يومـا ثـم قـال: «مـا أطيبـك وأطيـب ريحـك، ومـا أعظمـك وأعظـم حرمتـك، والـذي نفـس محمـد بيـده لحرمـة المؤمـن أعظـم عنـد الله حرمـة منـك، دمـه ومالـه، وأن لا يظـن بـه إلا خـيرا» [ابـن ماجـه].

وقـال في خطبـة الـوداع: «إن دماءكـم وأموالكـم وأعراضكـم حـرام عليكـم كحرمـة يومكـم هـذا في شـهركم هـذا في بلدكـم هـذا، ألا هـل بلغت»[الشـيخان].

نقـل النـووي في شرح هـذا الحديـث «أن الولـوغ في عـرض المسـلم مـن الكبائـر لاقترانـه بحرمـة الـدم والمـال، وهمـا مـن الكبائـر وكذلـك لعظـم حرمـة البلـد الحـرام التـي مثّـل النبـي صـلى الله عليـه وسـلم بهـا حرمـة عـرض المسـلم».

وعـرض المسـلم هنـا لا يعنـي الـشرف فحسـب بـل يشـمل كل مـا ينتقـص منـه..

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا التقوى ههنا، (وأشار إلى صدره) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله» [الشيخان].

ويقول الإمام النووي رحمه الله: «لا يحقره بمعنى لا يظن أنه خير من أخيه، بل يظن أن أخاه المسلم خير منه أو لا يظن شيئا».

وفيها يقول أيضا -رحمه الله- عند شرحه للحديث القدسي: «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب» [البخاري]: «المراد بالولي هنا المؤمن (الله ولي الذين آمنوا) فمن آذى مؤمنا فقد آذنه الله أي: أعلمه الله أنه محارب له، والله تعالى إذا حارب العبد أهلكه، فليحذر الإنسان من التعرض لكل مسلم».

ولقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن كمال الإيمان لا يكون إلا بالحب للمسلمين، فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» [الشيخان].

قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» [الأحزاب: ٣٦].

فهذا أمر الله تعالى وهدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ما جاء به فهل اخترنا ما يرضي الله؟

ثم إن الأخوة في الإسلام أخوة عقيدة وأخوة دين لا أخوة نسب «إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون» [الحجرات: ١٠].

فالمسلم من أي لون أو لسان أو جنس هو أخ للمسلم، وابن البلد والعشيرة ليست له تلك الأخوة إذا لم يكن مسلما، فأخوة الدين تقدم على ما سواها. كما دل على ذلك فعل الصحابة رضوان الله عليهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. ونحن المسلمين في زماننا هذا نحتاج إلى تحقيق هذه الأخوة التي مزقها أعداؤنا من يهود ونصارى وغيرهم.

ويجب أن ندرك الفرق بين الإيمان بالله والكفر حتى نستطيع أن نتمثل هذه الأخوة، قال أحد العلماء إنه عندما زار بلدا فيه من عباد الوثن والصنم والبقر فذهب وشاهد بعض معابدهم، قال: «تجد المهندس أنيق المظهر جميل المطلع يعبد البقر ويقدس روثه ويتمسح فيه ويجعل روث البقر في طعامه وشرابه»، تجده لا يستخدم ما أعطاه الله من العقل والفهم والفطرة ثم يضل هذا الضلال البعيد..

لا شك أن المسلم هو صاحب الحق بالحب والنصرة وبذل النصيحة وإرادة الخير له بالتعليم حتى يستقيم شأن مظهره و مطلعه وسائر أمره..

ونحتاج من الحفاظ والمدرسين والقائمين على التعليم والتربية أن يكونوا مثالاً لاتباع هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وأن تكون مجالسهم منبراً للتآخي في الله ولحب المسلمين بعضهم بعضا وللنصح والإرشاد والتوجيه والتثقيف وتعليم الأخوّة للناشئة.

ولتوضيح أكثر أقول: من خصائص المجتمع المسلم، الأخوة الإسلامية الموثقة برابطة الدين و العقيدة، ومن أول ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم حينما قدم المدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة التي لم يكن لها في التاريخ مثيل عند غير المسلمين.

وهذه الأخوة التي هي ثمرة من ثمار الإيمان، مبنية على مبدأ الولاء لله ورسوله. وهذا الإخاء ليس شعاراً بل حقيقة ثابتة عاشها المسلمون، وأراد أعداؤنا تمزيقها بشتى السبل، ولهذه الأخوة نضحي بالمال والدم؛ فما الذي يوجب تضامن المسلمين للدفاع عن كل أرض إسلامية، ودفع الأغنياء زكاة مالهم للفقراء، وكذا صلة الأرحام والتعاون والترابط في المجالات كافة، غير هذه الرابطة الموثقة والتي هي أوثق من رابطة اللغة والأرض والعشيرة.

وقال المولى عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض» [المائدة: ٥١]. وقال عز وجل: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» [المائدة: ٥٥، ٥٦].

والولاء: هو الحب والاتباع والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين.

والبراء: هو البغض والتخلي ومعاداة الكافرين والمشركين والمنافقين..

وحري بنا أن نقف عند قول النبي صلى الله عليه وسلم : «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله» [أحمد].

فلنراجع أنفسنا وخاصة المشتغلين بالتعليم، ولنجعل من دروسنا منبراً لحب المسلمين ونصرتهم وتعليمهم ما جهلوا وبذل النصيحة لهم وفق هدي المصطفى صلى الله عليه وسلم والاهتمام لشأنهم وعدم الخوض في أعراضهم.

وأختم بقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [مسلم].

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.. وصلِّ وسلم على سيدنا محمد إمام المرسلين، واغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

* نهانا الله تعالى عن الغيبة فقال: «ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» [الحجرات: ١٢] قال ابن كثير: «وقد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذكرك أخاك بما يكره» [الترمذي].. وقد ورد في الغيبة الزجر الأكيد ولهذا شبهها بأكل اللحم من الإنسان الميت للتنفير عنها والتحذير منها».

الذين أوتوا العلم والإيمان

:: عامر الغضبان

«العلم لا يتعارض مع الإيمان» هذا قول صحيح، لكنه غير كاف لفهم العلاقة بين العلم والإيمان في النفس المؤمنة. والنظر في مفهومي العلم والإيمان في القرآن الكريم يظهر أن الترابط بينهما ليست غايته عدم التعارض، إنما هناك أوجه من الاتساق والتفاعل والتداخل.

وسنحاول في هذا المقام استخلاص بعض الإضاءات المتصلة بهذا الموضوع من خلال النظر في سورة ذكر هذا الموضوع في مواضع عديدة منها، وهي سورة الروم، وسنذكر بعض الإشارات والمؤشرات التي يمكن أن تدلنا عليها هذه السورة الكريمة.

لقد تكرر في هذه السورة الكريمة ذكر آيات الله تعالى في النفس، والمجتمع، والكون. ومن الخصائص الملاحظة في عرضها لهذه الآيات تأكيدها الواضح على الآيات المستمرة في الحدوث في هذه الحياة الدنيا، أي المتصلة بالسنن الإلهية في الخلق والتدبير، من ذلك مثلاً قول الله تعالى: «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين» [الروم: ٤٦-٤٧].

ومن الدلالات الواضحة لهذا التأكيد والإثارة الدائمة للتفكير المتصل بالسنن أن نتذكر أن كلاً من السنة القائمة في الخلق، والمعجزة التي قد تحدث بخرقها، من عند الله تعالى وبأمره، وعندما يُفعَّل هذا الإيمان، فإن الإنسان سيرى آثار رحمة الله تعالى وحسن خلق الله مع كل تغيير يحدث بجريان هذه السنن واطرادها.

وهذا المنهج في النظر إلى السنن يقوي الإيمان ويزيد العلم، فيصبح العلم أكثر عمقاً، ليس علماً بظاهر من الحياة الدنيا فحسب، وتصبح زيادة الإيمان وترسيخه سبباً وثمرةً لهذا العلم.

ويحقق هذا المنهج متطلبات العلم الصحيح من الموضوعية والتجرد والبعد عن التحيز المضل والانتقائية في النظرة، ولعل ذلك يظهر في الوصف الذي ذكره الله تعالى في هذه

الآيات: «وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون، ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون، أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون، وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون، أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون» [الروم: ٣٣-٣٧].

تتحدث هذه الآيات عن الناس الذين يتصفون بالقصور في العلم والإيمان، فهم مع تغيرات الأحداث عليهم يقعون في الشرك أو في القنوط، أو في الفرح بما لا يملكون، ولو كانوا صادقين في بحثهم عن سنن هذه التغيرات، وقاصدين للاستدلال على النظرة المحيطة والعميقة، لما وقعوا في هذه الضلالات في العلم، ولما ابتعدوا عن الإيمان بالحق. وهكذا يكون موقف الإعراض عن آيات الله موقفاً مضاداً للإيمان والعلم معاً، لأنه سيؤدي إلى غياب الحق، وغياب الوسائل الموصلة إليه.

ويحقق منهج العلم والإيمان أيضاً مطلب الشمول والعمق في النظر، ولعل من أوضح مظاهر ذلك الربط الذي يقوم بين العلوم المرتبطة بالإنسان، وبالمجتمع، وبالكون، واتصالها كلها في العقل المؤمن بإرادة الله تعالى وحكمته، ولعل ذلك واضح في قوله تعالى: «أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون» [الروم: ٨٦]. وكذلك في الآيات القرآنية التي تعرض الآيات الكونية : «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون»... الآيات إلى قوله تعالى: «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» [الروم: ١٧-٢٥].

إن هذا الفهم للعلم والإيمان يتضمن رسائل عديدة للإنسان، وهي تستحق أن تعتبر غايات وأهدافا في تربيته، فهو مأمور بالبحث عن حسن خلق الله تعالى وآثار رحمته في كل تغير وتقلب في الكون، وهو مأمور بالإنابة والاستجابة وعدم الإعراض عندما يرى صنع الله ويشعر عظمة الله في خلقه وتدبيره، وهو مأمور بتحري العدل والالتزام بالإنصاف في نظره وتعامله مع نفسه مع الناس والكون، وهو مأمور بتوسيع معرفته لزيادة علمه وتقوية إيمانه.

وحين يختار الإنسان طريق الهدى، مستنداً إلى العلم والإيمان سيحفظه الله من الضلالة، ويثبته على الدين القيم إلى أن يأتي يوم القيامة فرحاً بفضل الله تعالى عليه إذ نجاه من الضلال في الدنيا، والهلاك في الآخرة: «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون، وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون» [الروم ٥٥-٥٦].

العلم والدين وإشكال التعارض

:: إبراهيم العلبي

كانت إشكالية العلم والدين على مر التاريخ ولا زالت تحتل موقعًا متقدمًا في نقاشات العلماء والفلاسفة، فمن قائل إنهما على طرفي نقيض، مستدلاً بصراع الكنيسة مع العلماء وتبنيها لخرافات ثبت بالدليل القاطع خطؤها؛ وقائل إنهما صنوان لا يصطدمان، وذلك بالنظر إلى أن العلم وحقائقه الثابتة لا تعدو كونها من صنع الله وتدبيره، وأن النص الديني لا يخرج عن كونه وحياً منه سبحانه، فإذا كان مصدر العلم والدين واحداً فأنى يصطدمان؟

وعلى الرغم من ظهور بطلان قول الفريق الأول، فإن الفريق الثاني لم يتمكن من الرد على كل ما أورده الفلاسفة وعلماء الطبيعة ردا شافيا، وما منشأ هذا الضعف ولا ذلك الوهم إلا في الخلط بين الحقيقة المطلقة، والتي لا يتأتى العلم بها إلا عن طريق الوحي باعتباره الواسطة بين الإنسان القاصر في علومه المحدود في وسائله، و مولاه العالم مطلق العلم، خالق الكون ومدبره، وبين الحقيقة النسبية المتمثلة في جملة قوانين الطبيعة ومكتشفات العلم القديم والحديث باعتبارها نتائج المنهج التجريبي التي تنبني على الاستقراء الناقص في المقام الأول، وهذا النوع من الاستقراء يفيد العلم بلا شك ولكنه لا يفيد الشمول المطلق.

ولطالما استشكل علماء الطبيعة والفلاسفة قديماً وحديثاً عدم قيام الدليل العلمي المجرد على مفادات النصوص الدينية تارة، وتعارضهما تارة أخرى، ولكن التأمل الدقيق يحكم بأن ما استشكلوه من عدم القدرة على إثبات الدين بالعلم المحض ليس إلا عجزاً معرفياً لا يسقط مقتضيات الإيمان، أما التعارض المزعوم فليس حقيقياً، بل هو ظاهري عند التحقيق، وافتراق في دائرة النظر ليس أكثر، كما بيّن ذلك الإمام حسن البنا في قوله: «وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر ولكنهما لن يختلفا في القطعي فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار».

إذن، فإن نسبية ما يثبته العلم و محدودية وسائله التي يستقي منها حقائقه لا تسقط الأخذ بها في مواضعها والبناء عليها، ولا يتعارض ذلك -كما بينا- مع الإيمان المطلق بكل ما أثبتته نصوص الوحي، ولو تعارضا ظاهرياً.

وهذا مثال تطبيقي سريع ربما يجسد الفكرة ويشرحها بشكل أوضح: الآية القرآنية تصف العسل بأنه «فيه شفاء للناس» [النحل: ٦٩]، و لما أتى أحدهم رسول الله صلى الله عليه و سلم وأخبره بأن أخاه يعاني من ألم في بطنه أمره بأن يسقي أخاه العسل، عملاً بالآية الكريمة، ففعل فزاد ألمه، فأخبر النبي فأمره بأن يسقيه العسل مرة أخرى، ففعل فزاد ألمه وعلا صراخه، فأخبر النبي فكرر أمره بسقي العسل، فلم يفلح في تخفيف الألم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «صدق الله و كذب بطن أخيك اسقه من العسل» [البخاري] فسقاه الرابعة فبرأ.

يقول من حلل الحادثة من زاوية طبية: كان المريض يعاني من قرحة في المعدة، فلما شرب من العسل في المرة الأولى تهيج القرح فتألم، ولما شرب الثانية اكتوى القرح بالمواد الأسيدية التي يحتوي عليها العسل فازداد الألم من الكي كذلك، ولما شرب الثالثة لم يتغير من الأمر شيء حتى مضى بعض الوقت، فشرب الرابعة فكان قريباً من مرحلة التعافي فبرأ إثر ذلك تماماً.

وهكذا، فالحقيقة العلمية، والتي تم الوصول إليها من خلال التجربة، وهي في المثال المذكور تضاعف الألم بعد شرب العسل، حقيقية من جهة لأنها مشاهدة وظاهرة للعيان، وظنية نسبية لا يمكن القياس عليها دائماً من جهة أخرى بسبب محدودية تلك التجربة و ظروفها التي تمت في إطارها، والتي تغيرت نتيجة التجربة بتغيرها، فنتيجة التجربة إذن لا ترقى لأن تكون حقائق علمية قطعية لا تتخلف في أية ظروف مهما كانت استثنائية أو خاصة.

ولا بد ختاماً من التنويه إلى أن الدين المقصود هنا هو دين الله الموحى به في كل زمان ومكان، بعيداً عن كل التحريفات التي طرأت عليه، نصًا أو فهمًا، فإن معظم ما استشكل قديمًا في إطار هذه القضية كان من قبيل تعارض الخرافات أو النظريات العلمية التي تبنتها الكنيسة وحملت رعاياها على الإيمان المطلق بها مع مكتشفات العلماء في تلك الفترة من الزمن، والتي نقضت تلك النظريات وتداعت لها تلك الخرافات، مما جعل الكنيسة تستشعر الخطر من العلم وتصادمه الحتمي مع الدين (الموهوم) فلم تكتف بالترويج للمنطق الصوري المنافس للمنطق التجريبي، بل مارست التعذيب والإقصاء والاستئصال بحق معارضيها وعلى رأسهم العلماء التجريبيون، ولا تزال المسألة بحاجة إلى المزيد من النظر والتأمل.

الخطاب الواجب الغائب

:: أحمد أبا زيد

«إنّها كلمة حقّ وصرخةٌ في واد, إن ذهبت اليوم مع الريح, فقد تذهب غداً بالأوتاد».

لم يلجأ الكواكبي إلى كلماتٍ أقلّ زخماً وأقل دلالةً على الخطر من تلكم الكلمات في تقدمة كتابه عن الاستبداد و الاستعباد, و لئن سُجّلت للكواكبي مأثرة شقّ صمت الشرق المطبق عن سياسات الإذلال وتغييب الأمّة عن الدولة زمن العثمانيين, ولئن استُدخل الكواكبي في كثير من المنظومات أو التأويلات القومية والعلمانية التي لا صلة له بها, ولئن كان منهج الكواكبي في التغيير ملهماً لكثيرٍ من المصلحين طيلة قرنٍ فات، رغم الإقرار بانفصال هذا النهج عن طبيعة حركات التغيير العربية الحاليّة, إذ موقف الكواكبي من ثورةٍ كالثورة السوريّة هو أنّها عمل أهوج يستبدل استبداداً باستبداد, لئن سلّمنا وتجاوزنا كلّ ذلك, فإنّ أهمّ إنجاز للكواكبي يهمّنا في هذا المقال تحديداً, هو تحويله الخطاب الإسلامي في زمنه من خطابِ السكوت والانسحاب من الفاعلية في الحياة إلى خطابٍ يرتكز عليه الاشتباك مع الحياة ومشاكلها السياسية والمجتمعية ويتأسّس عليه -كخطاب إسلامي- فعلُ التغيير، ويتحدّد بفضائه الذي تتخذ قيم الحرية والكرامة ومرجعية الأمة مواقع مركزيّة فيه, بعد أن كان الخطاب السائد من المؤسسة الدينية للعامة منشغلاً بتأكيد انفصال الأمّة عن الدولة في غير الطاعة والدعاء للسلطان, وبتنميط الطقوس واختزال الفعل الإسلامي بها.

ولهذا الإنجاز بالضبط, يمكن اقتباس كلمات الكواكبي أعلاه للدلالة على علّة ليست أقلّ خطراً...

بعد وفاة الكواكبي بحوالي عشرين عاماً, قامت الثورة على الاستعمار الفرنسي في عموم سوريا, لعلّ من الدلالات على تحوّل الخطاب الإسلامي وفاعليته في تنظيم المجتمع وتوجيهه لغايةٍ دينيّة تتجاوز الأوراد والأذكار وتجعل مهمّة التغيير محوريّة ضمن هموم المتديّن, هو حضور المشايخ الجليّ فيها, لإطلاق شرارتها أو للمحاربة في صفوف المجاهدين وتقديم خطاب إسلامي فاعل ومؤثّر كأساس للثوّار وعموم الناس, ولعلّ من المفيد نقلَ ما كتبه الشيخ علي الطنطاوي عن دور المشايخ في هذه الثورة إذ قال:

«وأنا أحبّ أن أعرض صفحة مطوية من تاريخ الشيخ بدر الدين، هي رحلته في سنة ١٩٢٤ مع الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب، من دمشق إلى دوما، إلى النبك، إلى حمص، إلى حماة، إلى حلب، هذه الرحلة التي طافوا فيها بلاد الشام (سورية) كلها.

وكانوا كلما وصلوا بلدة أو قرية، خرج أهلها على بكرة أبيهم، لاستقبالهم بالأهازيج

والمواكب، ثم ساروا وراءهم إلى المسجد، فتكلموا فيه ووعظوا وحمّسوا، وأثاروا العزّة الإسلامية في النفوس، وذكّروا بالمجد الغابر، وحثّوا على الجهاد لإعلاء كلمة الله، فكانت هذه الرحلة هي العامل الأول والمباشر لقيام الثورة السورية التي امتدّتْ سنتين، وأذهلت ببطولتها أهل الأرض.

والثورة.. قد قامت في الغوطة، غوطة دمشق، قبل أن تقوم في الجبل جبل الدروز، وقد بدأت بخروج طلبة العلم بدافع الجهاد».

وبعيداً عن النقاش التاريخي حول بدء الثورة على الفرنسيين, متى كانت أوّل رصاصةٍ فيها, فهذا جدلٌ لم يُحسم حتى اليوم, فإنّ ما لا شكّ فيه أنّ مركز الثورة الأثقل والأكثر تأثيراً في غوطة دمشق ودمشق المدينة, كان قد بدأ ثورته بخطاب إسلاميّ ناجز ومرجعيّة شرعيّة حاضرة في صفوفه, مرافقة للشعور الوطني والانتماء إلى المجتمع المحلّي وحماية خصوصياته وثقافته, ولأدبيّات التحرّر من الاستعمار, لا منفصلةً عن ذلك؛ الأمر نفسه في عموم سوريا, دون أن نعزو ارتباط الثورة بالشعور الإسلامي وخطاب الجهاد إلى موقف المشايخ بقدر ما كان هذا الارتباط محصّلةً طبيعيّة لثقافة المجتمع وتديّنه, وطبيعة المؤسّسة الدينية في ذلك الوقت التي لا يمكن فصلها عن المجتمع أو معاملتها كنخبة مستقلّة تدير شؤونها كـ»مؤسسة», وإنّما كانت أحد فئات المجتمع التي يعرّف بها نفسه وينظم فعالياته عبرها في سيرورة طبيعية مستمرة.

فيما تلا الاستقلال, ونشوء الأحزاب الإسلامية والعلمانية في سوريا, وتطوّر الجدل حول الدولة والدستور والقوانين, وما رافق ذلك من تحدّيات نظريّة وعمليّة للمشروع الإسلامي وللجميع, لم تنفصل المؤسّسة الدينية أو المشايخ أيضاً عن الوجود في المجتمع وتقديم خطاب متصل بقضاياه, ومحاولة تطوير أدوات هذا الخطاب لمواجهة التطورات الفكرية والسياسية التي لا تهدأ, يمكن أن نستذكر كتاب الشيخ مصطفى السباعي «الاشتراكية في الإسلام», ويمكن أن نستحضر كذلك حرص الرؤساء المستمرّ على لقاء المشايخ, هذا دون إغفال أنّ أنماطاً أخرى من التديّن المنسحب من الحياة والمؤكّد على الأذكار والحضرات كجنّة المسلم كانت حاضرةً أيضاً ولها جمهورها وتأثيرها, ولكن ما يعنينا هنا هو وجود خطاب إسلامي متصل بالحياة العامة وفاعلٍ فيها, تلك الحياة التي كانت مسرحاً نشطاً لحراك سياسيّ وفكريّ هو الأنشط والأوسع جمهوراً بالنسبة لكلّ التيارات الفكرية والسياسية الإسلامية والعلمانية فيما قبل الثورة السورية.

بـدأت أحـداث الثمانينيـات, و ليـس الغـرض هنـا سـرد هـذه الأحـداث أو أسـبابها أو تقييمهـا بقـدر مـا هـو ملاحظـة اتخاذهـا طابـع «الجهـاد» المؤسـس علـى أدبيّـات إسـلاميّة مرتبطـة بتديّـن المجتمـع وثقافتـه, ومتصـل بمشـروع إسـلامي لـه خطابـه المرتبـط بالحيـاة العامّـة والفعـل فـي الحيـاة السياسـية بغايـاتٍ معلنـة تتخـذ مظهرهـا الوطنـي والشـرعي معـاً, أنتجـت حركـة التغييـر ومواجهـة النظـام هـذه أدبيّاتهـا الخاصّـة وفنونهـا وأناشـيدها المتسـقة مـع هويّتهـا الإسـلاميّة والسـوريّة معـاً, بقـدرِ مـا كانـت تعبيـراً عـن تآلـف الانتماءيـن فـي انتمـاءٍ واحـد مـع طغيـان الانتمـاء الإسـلامي فـي خطـاب الحشـد أكثـر تبعـاً لطبيعتـه.

وبقـدر مـا كانـت حركـة التغييـر هـذه امتـداداً لتديّـن المجتمـع وثقافـةٍ حاضـرةٍ فيـه ولشـعور بالظلـم السياسـي والطائفـي معـاً, مـع الإقـرار بظهـور خطـاب أكثـر تشـدّداً مـع دخـول الخـط السـلفي أيضـاً مـع اشـتداد المعركـة, ولكـن تبقـى حركـة التغييـر هـذه –والأمـر متعلّـق هنـا بالتوصيـف لا بالاتفـاق أو الاختـلاف- ظاهـرةً ضمـن النسـق الثقافـي والاجتماعـي مؤسّسـة علـى خطـاب إسـلامي ضمـن النسـق نفسـه, وتتّكـئ –قبـل أدبيّـات تنظيـم الإخـوان العالمـي- علـى تـراث متراكـم لا يبـدو فيـه التديّـن منعـزلاً عـن الفعـل فـي الحيـاة بشـتى مناحيهـا.

اسـتطاع النظـام البائـد قمـع ثـورة الثمانينيـات, وكانـت نتيجـة ذلـك عـدا مـا دُمّـر مـن مـدن ومـن قُتـل مـن شـهداء ومـن عُـذّب مـن أسـرى,

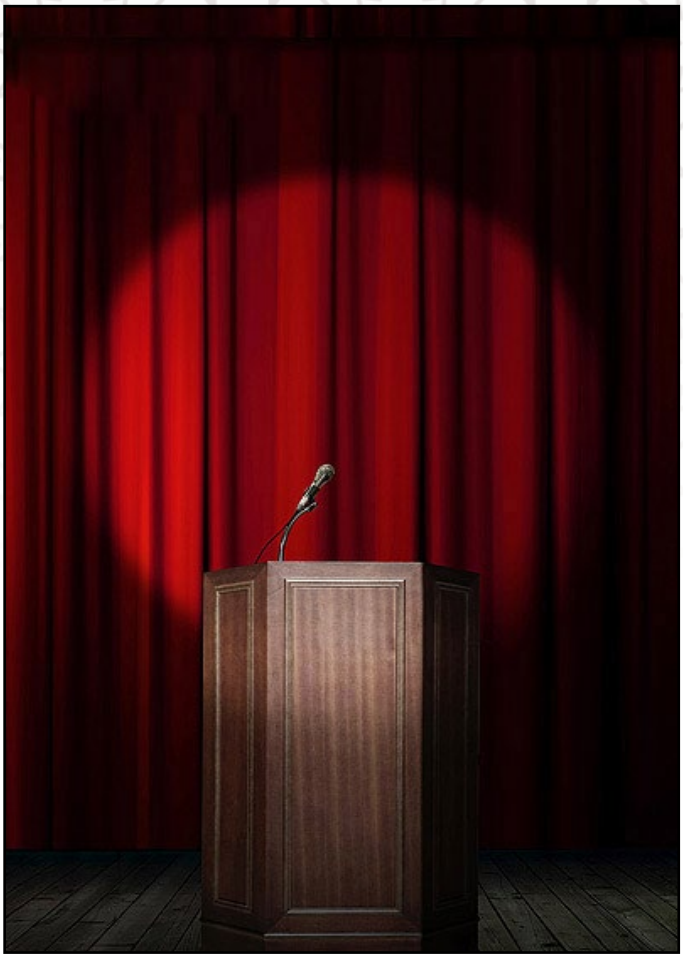

هـو تجريـم الانتمـاء لجماعـة الإخـوان المسـلمين ككلّ والحكـم علـى مـن يشـتبه بـه الانتمـاء إليهـا بالإعـدام, لا للطليعـة المقاتلـة وحدهـا. أي إنّـه كان تجريمـاً اسـتهدف الانتمـاء إلـى «فكـر» ككلّ لا لـ«فعـل» وحسـب، ولـم يكـن التجريـم متعلّقـاً بالإخـوان كخصـم سياسـيّ، بقـدر مـا كان لهـذا الخطـاب الإسـلامي القـادر علـى الحشـد والتجييـش والمؤسّـس علـى ثقافـة المجتمـع وتديّنـه والمحاكـي لروحـه العامّـة, مـا حصـل, ومـا لـم يُكتـب, هـو اتفـاق –لا يهـمّ إن كان اتفاقـاً ضمنيّـاً أم صريحـاً- بيـن النظـام ومـن تبقّـى مـن المؤسّسـة الدينيـة علـى مـا يمكـن أن ندعـوه بـ«طقسـنة المؤسّسـة», أي تحويـل الخطـاب الإسـلامي فـي سـوريا إلـى خطـاب متعلّـق

بالطقوس والشعائر, واختزال الدين إلى عبادة.

ولم يكن مطلوباً من الجميع أن يقدّموا حججاً شرعيّة لطاعة وليّ الأمر, ولكن ما كان يجرّم به أيّ كان هو محاولة الخروج بالدين من المساجد. فارتاح النظام بذلك من قلق خصمه الإسلاميّ الصعب, ورأت المؤسسة الدينيّة ذلك خيراً من أن تُحرم من أيّ فضاء لممارسة الدين, فاهتمّت بالتربية والدعوة ودور تحفيظ القرآن, واختُزل الخطاب الإسلامي مذ ذاك في تدريس الفقه وعلوم الدين وفي الأخلاق الحسنة والأوراد والشعائر.

حلّت الثورة إذن وخطاب المؤسّسة الدينيّة الذي يعرفه الناس ويعرفه المشايخ هو هذا, خطاب السلامة, الذي فاجأته كما فاجأت الجميع جمعةُ الكرامة, أوّل جمعة في الثورة السوريّة وعنوان بدايتها الفعليّ, حيث كان الشيخ أحمد الصياصنة في درعا والشيخ أنس عيروط في بانياس حاضرين في مقدمة المظاهرات, بينما كان الشيخ البوطي ينسلّ مبتعداً عن مظاهرة الجامع الأموي التي هوجمت وقُمعت داخل المسجد.

وجد الناس أنّ المساجد هي رمز مقاومتهم للاستبداد وأفضل منطلق لمحاربته والدعوة للحرية والعدل والكرامة, إضافةً لإمكانية التجمع فيها، دون أن يكون ذلك صدفة إذ هذا أحد أسس عمارة المساجد وغاياتها، ومع كلّ نزيفٍ شهيد كانت مساجد أخرى يُسمع فيها التكبير ثمّ جموع القائمين من صلاتهم لثورتهم

ثمّ صوت الرصاص ثمّ تشييع الشهداء.

في كلّ ذلك, ومع زيادة حضور الحسّ الإسلامي وشعاراته مع تقدّم الثورة, لم يظهر من المؤسسة الدينية موقف منتمٍ لهذه الثورة كمؤسّسة, وإنّما كمواقف متفرّقة للمشايخ المعروفين منهم والمغمورين. قد يكون للأمر علاقة بمصالح أو نقصِ شجاعة أو اجتهادات لم تتحرّر من فقه الاستبداد, أسّستها ثلاثون عاماً من وأد الخطاب الإسلامي و«طقسنته».

تطوّرت الثورة إلى حراكٍ مسلّح, مشابه لما كان قبل ثلاثين عاماً ولما كان قبل تسعين عاماً, مع وضوح الحسّ الإسلامي في مقاومة الاستبداد وانتشاره أكثر, ومع غياب الخطاب الشرعي المرافق, أو ضآلة حضوره, بما أنّ المواقف المؤيّدة للثورة في أغلبها غادرت خارج البلاد.

يمكن لنا أن نميّز الآن في الثورة خطابين فكريّين ناجزين هما: الخطاب العلماني والخطاب السلفي, ودون الدخول في مناقشة أيّ من الخطابين ولا التعليق على حجم الاتفاق أو

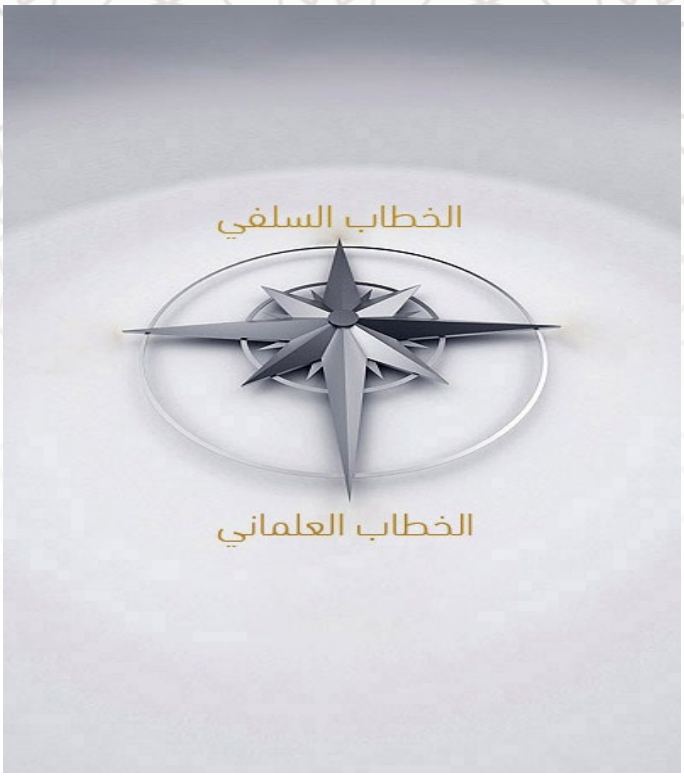

الاختلاف معه, فإنّه يمكن القول إنّ كليهما خطاب مستورد لم يولد من المجتمع نفسِه وليس متّصلاً بروحه العامّة, كليهما خطاب نخب يحاول تأسيس قاعدةٍ شعبيّة له, وإن كان الخطاب السلفي أقدر على تأسيس هذه القواعد بحكم مشاركته الضخمة في التحرير والعمل المسلّح, وهذا ليس قدحاً ولا يقلّل من صوابية هذه المشاريع, بينما الخطاب الأشبه بتديّن المجتمع وثقافته في مدنه الرئيسية والمفترض أن يكون الوليد الطبيعيّ لانتفاضه وتحرّكه للتغيير هو الوحيد الغائب, وهذه المفارقة لا يمكن فهمُها بمعزل عن تاريخ الخطاب الديني الذي سردناه باختصار, ولا يمكن تصنيفها ضمن المشاكل السهلة أو الصغرى.

يمكن أن يتوضّح أثر هذا الغياب أكثر في التفريق الحاصل في الثورة ما بين «الكتائب الإسلامية» و«الجيش الحرّ», إذ يظهر وكأن كتائب الجيش الحرّ علمانية في هذا التوصيف, رغم النزعة المتديّنة الواضحة لدى كتائبه, ويحيل الانتماء الإسلامي إلى الكتائب السلفية لا لكونها هي من تنزع عن الآخرين وصفهم الإسلامي بقدر ما أنّ هؤلاء الآخرين ليس لديهم خطابٌ شرعيّ ناجز يتحدّدون به. وبقدر ما تجدر ملاحظة «سمت المجاهد» الذي أصبح مرتبطاً بلباس وأدبيّات وأناشيد من خارج المجال التداولي للبيئة المحليّة مقارنةً بسمت المجاهد وأدبيّات الجهاد في الثمانينيات.

إنّنا أمام حالةٍ من الحسّ الثوريّ والوطنيّ والمتديّن اليقظ لجماعة بشريّة كبيرة العدد وتشكّل الفاعل الأكبر في صياغة الواقع, لكنّه حسّ يواجه ضياعاً فكريّاً حين لا يجد الحاضن الذي يقدّم له الخطاب الأشبه به.

إنّها المفارقة الأغرب أنّ الجماعة الأكبر والمعبّرة عن تحرّر المجتمع المحلّي ويقظة الحسّ الإسلامي معاً, والتي يبدو أنّها من تحدّد شكل المستقبل بقدر ما قام على ثورتها شكل هذا الحاضر, لا تجد الأساس النظري والخطاب الشرعي وأدبيّات الجهاد والنهضة التي ينبغي حسب سيرورة الأمر للمراقب أن تولد بعفويّة معها وأن تكون تحصيلاً بدهيّاً لتفاعل مكوّنات الروح العامّة لأيّ مجتمع مع واقعه, بسبب مؤسّسة انفصلت عن واجباتها بعد أن فُصلت عن واقعها.

إنّه الخطاب الإسلامي الواجب... و الغائب

العلامة الفقيه المحدث الأستاذ

عبد الفتاح أبو غدة

رحمه الله تعالى

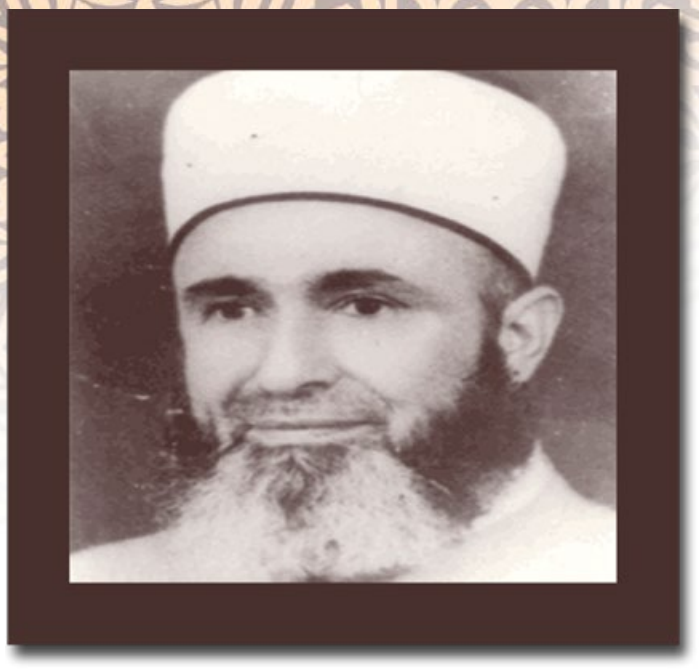

:: محمد عادل فارس

حين أتحدّث عن بعض علماء الشام الأفذاذ فإن حديثي عن الشيخ عبد الفتاح أبي غدة له معنى آخر، فقد درّسني في ثانوية المأمون بحلب، ولكن استفادتي الكبيرة منه لم تكن في المدرسة، بل كانت في المسجد. فقد كنتُ أواظب على استماع خطبة الجمعة منه في جامع الثانوية الشرعية بحلب، ولا يحُول بيني وبين الصلاة عنده حرٌّ أو برد، أو وجود امتحانات مدرسية أو غير ذلك، بل كنت أحضر مبكراً فأستمع الخطبة وأصلي الجمعة، ثم أجلس لاستماع الدرس الماتع الذي يقدمه بعد الصلاة، وكان يسميه: «جلسة التفقه في الدين» ويجيب فيه على أسئلة الحاضرين التي يقدّمونها مكتوبة، وتكون إجاباته باقة رائعة من الأحكام الشرعية وأدلتها من الكتاب والسنّة، ثم من أقوال السلف وأئمة الفقه، إلى جانب المواعظ الرقيقة، وأبيات الشعر المؤثّرة، واللطائف اللغوية، والنكت الذكية.

ثم إني سألته أن يقدّم درساً أسبوعياً آخر، فكان أن استجاب، رحمه الله، فصار يلقي الدرس مساء كل خميس في «مسجد سيف الدولة»، وكان درساً في موضوعات شتى، يختار موضوعاً كل أسبوع، مما يمسّ حياة المسلم ويصحح فكره وسلوكه.

وبعد حين سأله بعض أصدقائي من طلبة كلية الهندسة التي كنّا طلاباً فيها آنذاك، أن يقدّم درساً أسبوعياً ثالثاً، فاستجاب لهم كذلك، وكان درساً في الفقه، مساء كل اثنين، في جامع الإسماعيلية، يقرأ فيه من كتاب «فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية»، فكان رحمه الله، لا يألو يوجّهنا ويعلمنا وينصحنا، وكان يزرع في نفوسنا الرغبة القوية في تلقّي العلم ومجالسة العلماء وحبهم واحترامهم وتوقيرهم.

ولد الشيخ عبد الفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة -رحمه الله تعالى- في مدينة حلب الشهباء في السابع عشر من رجب من عام ١٣٣٦ للهجرة، وهذا يطابق منتصف عام ١٩١٨ للميلاد. وقد كانت أسرته التي نشأ فيها أسرة سِتْر ودين. فأبوه محمد كان رجلاً معروفا بالصلاح والتقوى والمواظبة على الذكر وتلاوة القرآن، وكان يعمل في تجارة المنسوجات التي ورثها عن أبيه.

التحق الشيخ بالمدرسة العربية الإسلامية في حلب، ثم بالمدرسة الخسروية العثمانية التي بناها خسرو باشا، الوالي العثماني، والتي تعرف الآن باسم الثانوية الشرعية، وتخرّج فيها عام ١٩٤٢، وانتقل إلى الدراسة في الأزهر الشريف، فالتحق بكلية الشريعة، وتخرّج فيها في الفترة ما بين ١٩٤٤ و١٩٤٨ للميلاد، وانتقل منها إلى التخصص في أصول التدريس في كلية اللغة العربية في الأزهر أيضاً، وتخرّج فيها سنة ١٩٥٠ ميلادية.

تلقى الشيخ عبد الفتاح رحمه الله على مئات الشيوخ، وكان من أبرز شيوخه في حلب الشيخ عيسى البيانوني والشيخ إبراهيم السلقيني (وهو جد الدكتور إبراهيم السلقيني مفتي حلب الذي توفي قبل فترة)، والشيخ محمد بن إبراهيم السلقيني، والشيخ محمد راغب الطباخ، والشيخ أحمد الزرقا، والشيخ مصطفى بن أحمد الزرقا، والشيخ محمد الرشيد، والشيخ محمد سعيد الإدلبي، والشيخ نجيب سراج الدين، والشيخ أحمد الكردي، والشيخ محمد الناشد.

وكان من شيوخه في مصر: الشيخ عبد المجيد دراز، والشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ المحدث أحمد بن محمد شاكر، والشيخ حسنين محمد مخلوف، والشيخ المحدث الأصولي عبد الله العماري، والشيخ عيسى منّون، والشيخ أحمد الخضر حسين، والشيخ يوسف الدجوي. والتقى في مصر كذلك: الشيخ مصطفى صبري، شيخ الخلافة العثمانية سابقاً، والشيخ محمد زاهد الكوثري، والإمام الشهيد حسن البنا، رحمهم الله جميعاً، وكثير من الشيوخ الآخرين في الحجاز والهند والباكستان وغيرها.

ويُعَدُّ تلامذته بالمئات، بل بالألوف. ويكفي أن نذكر من تلامذته المقربين الشيخ العلامة المحدّث محمد عوامة، والشيخ الأديب الأريب مجد مكي، والشيخ الداعية العالم حسن قاطرجي اللبناني، والشيخ محمد الرشيد النجدي. وقد ألف هذا الشيخ الأخير كتاباً بعنوان: «إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح» وهو ثَبَتٌ عظيم يعرض فيه إلى النشاط العلمي للشيخ عبد الفتاح، ويذكر فيه أسماء مئات الشيوخ الذين أخذ عنهم، والمئات الذين تتلمذوا عليه.

لقد كان رحمه الله شغوفاً بالعلم والكتب والقراءة، وكان لديه مكتبة ضخمة حافلة بالكتب المعروفة الشائعة، والكتب النادرة، والمخطوطات. وكان يحض تلامذته على القراءة والبحث. ومن جملة الكتب التي كان يوصينا بقراءتها: كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي، وكتاب إعلام الموقعين للإمام ابن قيم الجوزية، وكتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم للإمام ابن تيمية.

بعد أن أكمل الشيخ دراسته في مصر عاد إلى سورية ودرّس في مدارسها الثانوية العامة والثانوية الشرعية الخسروية والمدرسة الشعبانية الشرعية، ثم في كلية الشريعة بجامعة دمشق، ثم عُيّن مديراً لموسوعة «معجم فقه المحلى لابن حزم»، ثم درّس في جامعة محمد بن سعود في الرياض، وفي المعهد العالي للقضاء، وعُيّن أستاذاً لطلبة الدراسات العليا، وانتُدب أستاذاً زائراً في جامعة أم درمان الإسلامية في السودان ولمعاهد الهند وجامعاتها. وقد أحصى له تلميذه البارع محمد آل رشيد ثلاثة وسبعين كتاباً، بين تحقيق وتأليف. وإذا كان عمل المحققين، في كثير من الأحيان، لا يعدو أن يكون بياناً للفروق بين النسخ المخطوطة، وشرحاً لبعض المفردات، فإن تحقيقات شيخنا تجعل مع الكتاب كتاباً، هو في الغالب لا يقلُّ فائدة عن الكتاب الأصلي، فضلاً عن جلاء الغموض، وضبط الألفاظ، لا سيما الأعلام، والإتيان بفوائد نادرة. وهذا ما يجعل طلاب العلم يحرصون كل الحرص على اقتناء الكتب التي حققها الشيخ رحمه الله.

وقد قام مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في لندن بتكريم الشيخ، فاختاره لجائزة العلم التي قدّمها سلطان بروناي تقديراً لجهوده في التعريف بالإسلام وإسهاماته في خدمة الحديث النبوي الشريف.

وكان من آثار تعلقه بالعلم، وشغفه به، أن خصص عدداً من مؤلفاته لشؤون العلم والعلماء، مثل: «صفحات من صبر العلماء» و«قيمة الزمن عند العلماء» و«الرسول المعلم».

كان الشيخ رحمه الله يمثّل الشخصية القوية المتميزة للعالم المسلم المجاهد، فهو واسع العلم، رحْب الاطلاع، يعيش قضايا أمته وعصره، ويضع هموم المسلمين نصب عينيه، مدركاً كل الأبعاد التي تحيط بهم. وهو مع اتصافه بكل ما تقتضيه شخصيته العلمية، من رزانة وهيبة ووقار، حُلْوُ الحديث، رشيق العبارة، قريب إلى قلوب جلسائه، يأسِرُهم بحسن محاضرته، وطيب حديثه، وبُعْدِ غَوره، مع حضور بديهة، وحسن جواب. حتى إن المُعاشر له لينهل من أدبه تماماً كما ينهل من علمه. وكان من اهتمامه بآداب المجالسة والتعامل والمعاشرة أن انتشر في ثنايا كتبه وتعليقاته تأكيد فنون هذه الآداب وأخبار المتأدبين (انظر مثلاً الكتيب الصغير الذي ألفه بعنوان: «من أدب الإسلام»، وتعليقاتِهِ على رسالة المسترشدين، وعلى قصيدة عنوان الحِكَم لأبي الفتح البُستي).

فلا غرو بعد ذلك أن تلتقي عليه القلوب، وتتعلق به النفوس وأن يكون موضع الحب والتقدير والثقة لدى جميع من خالطه من إخوانه وأحبابه، وهو إلى جانب ذلك كان بعيداً عن الغلو والانفعال، يزن الأمور بميزانها الشرعي الدقيق، وقد أخذ بذلك نفسه وتلامذته.

ذكرنا أن الشيخ قد التقى في مصر الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى في الأربعينيات، وأصبح بذلك اللقاء من جماعة الإخوان المسلمين، تلك الجماعة التي أخذت على نفسها حمل راية الإسلام، والعمل على إعادة دولته وبناء حضارته، في العصر الحديث، وبعد أن عاد الشيخ إلى بلده سورية، حمل على عاتقه عبء حمل الدعوة إلى الله تعالى، فكان له نشاطه الدعوي العام في المساجد والمدارس والمجالس العامة، ونشاطه الدعوي الخاص، من خلال جماعة الإخوان المسلمين، وتعلَّقَ الإخوان بدورهم بالشيخ رحمه الله، ووثقوا به، لورعه وتقواه وعلمه ورجاحة عقله وحكمته، فكان لهم مرشداً وسنداً وموئلاً.

وكان الشيخ رحمه الله تعالى خلال إقامته في سورية مدرسة دعوية حية متحركة، تتلمذ عليه فيها ثلاثة أجيال أو أكثر من الدعاة العاملين، كلهم يفخر بأنه نال شرف الاغتراف من بحر فضيلته.

وعندما اشتدت وطأة الطغيان على سورية في أواسط الستينيات، سعى الشيخ إلى تشكيل ما يُشبه الجبهة الإسلامية، فتحرك حركة إيجابية تجاه علماء مدينة حلب، فاجتمعوا معه في لقاءات موسعة كانت تضم خلفها جماهير المسلمين في المدينة، وتُظهر قوتهم، وتُبرز وحدتهم، إلا أن هذا السعي لم يؤتِ ثماره المرجوّة، لأسباب تتعلق بطبيعة الوعي الإسلامي، لحجم المأساة التي كان الشيخ يحاول أن يتصدى لها.

وفي مسجد (الخسروية) حيث كان يجتمع أسبوعياً آلاف المصلين، كان الشيخ يطرح على منبره، قضايا الإسلام والمسلمين المعاصرة، متصدياً للدكتاتورية والاستبداد، ولنزعات العلمانية والتغريب، ويضيق المستبدّون ذرعاً بالشيخ، وتصل إليه تهديداتهم من هنا وهناك... فيقف يوماً ليقول لهم بجرأة العالم المسلم المجاهد:

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً على أيّ جنب كان في الله مصرعي

اعتُقل الشيخ رحمه الله مدة أحد عشر شهراً في سجن تدمر الصحراوي، وأُفرج عنه على أثر حرب حزيران ١٩٦٧، وبعدها غادر إلى السعودية، أستاذاً في جامعاتها كما ذكرنا.

ومع رغبة الشيخ الملحّة في الانصراف بكليّته إلى الجانبين العلمي والدعوي، اضطر أكثر من مرة، أن يستجيب لرغبة إخوانه، فيتحمّل المسؤوليات التنظيمية، فكان أن تولى منصب المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، ثم ما أسرع ما تخلى عنه، عندما وجد من يتولاه، ثم أُلجئ مرة أخرى إلى تولي هذا المنصب سنة ١٩٨٦، وظل راعياً للجماعة ومراقباً عاماً لها حتى سلم الأمانة عام ١٩٩١ لفضيلة الدكتور حسن هويدي متفرغاً للعلم والتأليف. وخلال هذه الفترة، وفي عام ١٩٩٥ قام الشيخ رحمه الله -بدافع من حرصه على وطنه ووحدة أبنائه وكرامة الشعب السوري- بمحاولة لرأب الصدع الذي حصل في سورية في عقد الثمانينيات، فعاد إلى سورية مؤملاً إجراء لقاءات مع المسؤولين ابتغاء تقريب وجهات النظر وتخفيف المعاناة التي أدت إليها أحداث سابقة، ولكن الأمور لم تَجْرِ كما أراد الشيخ لها أن تكون، فعاد إلى الرياض.

في أواخر شهر رمضان ١٤١٧ للهجرة ألمّ بالشيخ مرض التهابي، وهو مقيم بمدينة الرياض، وتفاقم المرض حتى حان الأجل فالتحق بالرفيق الأعلى فجر يوم الأحد التاسع من شوال سنة ١٤١٧ للهجرة، الموافق ١٦ من شباط سنة ١٩٩٧ للميلاد، عن عمر ثمانين عاماً قضاها في طاعة الله والدعوة إلى دينه وتعليم شرعه، فرحمه الله رحمة واسعة، وتقبل الله منه صالح ما قدّم، وتجاوز عن خطاياه، وجزاه خيراً على ما نفع به المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

قصص من واقع الثورة

:: عبد الكريم اليماني

ذات طفولة

أمتار قليلة ويصل، ضغط على جرحه، ها هو مدخل البيت، علب السمن والحليب القديمةُ التي كانت ممتلئة بشتلات الريحان والقرنفل والفل والتي شكلت جانباً أساسياً من (زريعة) المدخل لم تعد موجودة نتيجة قذيفة سقطت قبل أسبوعين، قال أبوه حينها أنهم لن يغادروا المنزل حتى ولو هدموه فوق رؤوسهم، خطواته بدأت تتثاقل، اتكأ على الحائط، شعر بأن حلقه قد تيبس تماماً، أمسك ربطة الخبز وضمها إلى صدره بقوة...

يد تستند إلى الحائط...

يد تمسك ربطة الخبز..

الدم الحار يتدفق من جرح غائر في الخاصرة..

بضع خطوات يا حسن، بضع خطوات وتصل البيت، سيأكل أخوك الصغير عمر، ستغمس له والدتك الخبز بالماء، وسيشبع.. ستطعم أباك الذي لم يعد يحرك قدميه نتيجة شظية استقرت في ظهره، «إيه يا حسن.. شد حيلك.. أنت رجال!!»

حاول أن ينادي أمه، لم تتجاوز حروفه شفتيه. تملكه الإعياء، بدت الألوان تبهت في عينيه، سقطت ربطة الخبز وقد غطتها الدماء..

سقط فوقها... وزغردت له كل شجيرات الياسمين.

صحوة

مدت يدها تتحسس الماء قبل أن يصبه
الغاسل فوق وجه ابنها: ابني لم يكن يحب الماء
ساخناً..
كان يستحم بالماء الفاتر!!

كلماتها المبعثرة..
تخفي قهراً يزلزل الجبال..

راحت تفرك كفه.. أصابعه..
رمقت جسده الفتي بعينين كليلتين..
مسحت وجهه..

علها تستفيق!!

:: الشاعر معتصم الحريري

ها أنت تُبحر مِن جديد في بحور العاطفة
من مرفأ الأحزان تُبحر في هدوءٍ
غارقاً في ليلك الصوفيِّ
تبكي للحياة الزائفة
لا شيء غير البحر يفهم سِرَّ عشقك
كيف تنتفض الحياة على جروحك
كي تهبُّ العاصفة
أبحر ولا تنظر وراءك
لحظة الإبصار تلمع في فضاءكَ خاطفة
كالبرق تُومضُ
هل رأيت البرق يُومض للقلوب الخائفة
حلِّق بروحك في المحيط ولا تسل أين النَّوارس؟
فالنوارس للشواطئ عازفة
قد قَيَّد الميناء أرجلها
فباتت نازفة
لا تبتئس لست الوحيدَ
هناك نجم سوف يرشدك السبيلَ
إذا صدقت له المحبَّة بالعيون الذارفة
وهناك وجه حبيبة ترنو إليك من الغيومِ
فتوقظ الأحلام في أعماق قلبك
توقظ الطفل اللعوب ليرتمي في حجرها
ويغيب في أغصانها
مثل الطيور الراجفة
اصعد بروحك كي تفجِّر تحتك الأنهار
تغسل كلَّ أوحالِ الليالي
بالسيول الجارفة
عرِّف بنفسك:
أنت إبن الأنبياء وكلُّ ثورات البلاد على يمينك
واقفة
إيهٍ أبا الثوار أتعبنا انتظارك
أين أنت ودورة التاريخ تمَّت
والشُّموس غدت لأجلك كاسفة
أقبل فإنَّا قد سئمنا... قد سئمنا
من رعاةٍ سيَّرتنا كالخراف العالفة
قد سئمنا من دنا التَّزوير هذي
والبطولات السخيفة
والشعوب الزاحفة
أقبل فأنت هو الحقيقة
والحقيقة قاذفة

* * *

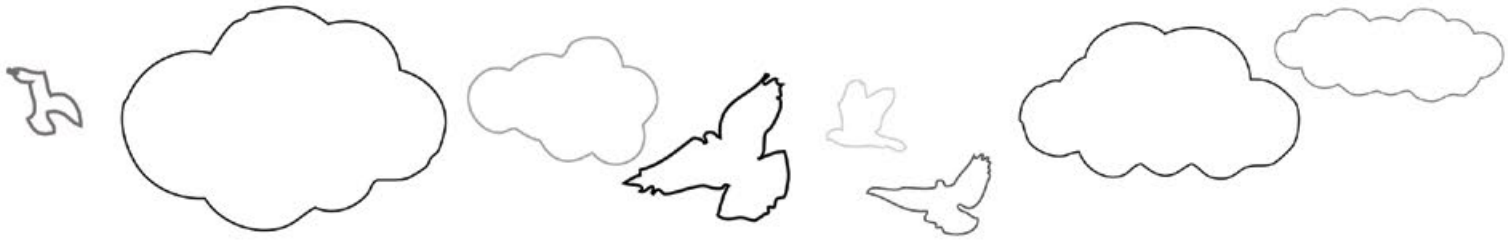

أو ما ترى الدُّنيا تئنُّ إليك شوقاً
وهي تنتظر اللقاء
أو ما ترى الأرض اليباس تموت من شحِّ السَّماء
والأرض مثل الشعب تبلى
إن سقاها الغيم طلَّ
لم يخالطه الفداء
والزَّرع لا ينمو بأرضٍ
لم يكن فيها قليلٌ من بقايا كبرياء
وكذلك الشعب الأبيُّ
خليفة الله العليِّ
وطفل كلِّ الأنبياء
تشتاقه الدنيا
كما تشتاق للحب النِّساء
وتراه فارسها الوحيد
رسولها للعالمينَ
وطفلها عند المساء
وتضم قبلتها إليه لتستفزَّ حياته
ويذوب عشقاً في اللقاء
كأس الحياة براحه يختال فيها ضاحكاً
والأرض خمرتها الدِّماء
عيناه للأحرار.. للثوّار.. للأشعار لكنْ
للطواغيت الحذاء

ويداه للمتشرّدين النائمين على الشوارع
قوتهم برد الشتاء
قطط المزابل والمنازل في بلادِ الأغنياء
يا مالك الثوّار أقبِلْ
كي أريك عدالة الإنسان تعوي مثل كلبٍ
بين أضواء القصور
وحاويات الأشقياء
وأريك عبَّاد المقاهي
ثمَّ أفخاذ الملاهي
وارتعاشات الحياء
وأريك أشباه الرِّجال
الخائرين كما البِغال
العازفين عن النِّضال
النَّاعمين الأبرياء
وأريك ماذا قد أريك
وأنت في عيني ضياءٌ لا يماثله ضياءْ
لكنَّه ألم قديمٌ ورَّثته ليَ الطيورُ
لكي أبادلها الغناءْ
غنيته يوما فحلِّق
ثم أجهش بالبكاءْ
فعلمت أنِّي عندما أبكي
أغنِّي للحياة كما أشاءْ

دعوة للقراءة

طاحون الشياطين

لـشـريـف الـراس

شـريف الـراس، أديـب سـوري معـارض عـاش معظـم أيامـه الأخيـرة ومـات فـي المنفـى، شـأنه شـأن آلاف السـوريين الأحـرار.

يتميـز أدب الراحـل شـريف الـراس بالسـخرية اللاذعـة شـأن معظـم الأدبـاء الذيـن خرجـوا مـن رحـم المأسـاة، وروايـة «طاحـون الشـياطين» لا تبتعـد عـن هـذا السـياق كمعظـم كتاباتـه حيـث اسـتطاع الأديـب المبـدع فيهـا أن يكشـف عـن جانـب أليـم مـن مأسـاة حمـاة وتداعياتهـا، وأن يوثـق الممارسـات القمعيـة فـي سـوريا والتـي تفضـح نظـام حافـظ الأسـد الفاشـي، كل ذلـك بأسـلوب أدبـي جميـل ومؤثـر.

يقـول الأديـب محمـد الحسـناوي رحمـه اللـه فـي دراسـة لـه عـن روايـة «طاحـون الشـياطين»: الواقـع فـي الفـن القصصـي هـو مـا يمكـن تصـور وقوعـه عقليـا، وليـس الـذي وقـع بالفعـل، لأن بعـض مـا ينطـوي عليـه الواقـع أحيانـا، يحمـل مـن الغرابـة مـا لا يمكـن تصـور وقوعـه بشـكل عـام!

وأمـا روايـة طاحـون الشـياطين، فتـكاد تنقـض هـذه المقولـة وتقلبهـا رأسـاً علـى عقـب، تقـول الروايـة: «لـو أننـا جمعنـا كل وحـوش الغابـات، وأطلقناهـا علـى سـكان مدينـة محاصريـن بسـور مـن نـار، فهـل تسـتطيع أن تـأكل أربعيـن ألـف إنسـان أعـزل بريء خـلال تلـك الفتـرة الزمنيـة القاسـية؟! ثـم خبّـرني؛ لمـاذا حيـن كانـت تتـاح فرصـة المفاضلـة بيـن المـوت والحيـاة كان أعـوان هـذا الوحـش يختـارون مـن بيـن الحشـد، الأطبـاء والمهندسـين والمعلميـن، وكل مـن يحمـل شـهادة عاليـة؟!».

فالروايـة ليسـت خياليـة وليسـت تتحـدث عـن بـلاد «الـواق واق» بـل تحكـي مأسـاة العصـر فـي مدينـة سـورية، وبالـذات ١٩٨٢، ولا علاقـة مباشـرة بينهـا وبيـن روايـة «العالـم» لجـورج أورل، علـى الرغـم مـن أنهمـا تصنفـان فـي الأدب السياسـي، وتمجـدان الحريـة، وتنضحـان بالسـخرية.

* من الرواية *

«نـزل الدكتـور أحمـد الفشـاش مـن البـاص، وفـي اللحظـة ذاتهـا تلقّـف حقيبتـه التـي قـذف بهـا إليـه شـاب مـن فـوق، وكان هـذا «الفـوق» مثـل «التحـت» يغـصّ بالركاب والأكيـاس والصناديـق والسـلال، وكان هـؤلاء الـركاب جميعـاً مـن البـدو والفلاحيـن، أو هـم بـدو بـدؤوا محاولـة تقليـد حيـاة الفلاحيـن فـي هـذه المنطقـة النائيـة مـن البادية. ولاحـظ الدكتـور أحمـد أن نوافـذ البـاص كانـت مليئـة بالعيـون المحدقـة التـي تتسـاءل: «مـا الـذي جـاء بهـذا الأفنـدي الأنيـق إلـى هـذه المنطقـة النائيـة؟».

انطلـق البـاص مـن جديـد فأثـار خلفـه ذيـلاً طويـلاً مـن الغبـار الكثيـف الـذي حجـب النوافـذ والعيـون وكل شـيء.. ثـم مـا لبـث البـاص أن غـاب هـو وذيلـه الغبـاري الطويـل وراء تلـك التـلال البعيـدة.

وقـف الدكتـور أحمـد وحيـداً ينظـر إلـى هـذا الفضـاء اللانهائـي مـن الأراضـي المنبسـطة الممتـدة حتـى خـط الأفـق البعيـد.. وكان ثمـة «قبّـرة» تنظـر إليـه –باسـتغراب.. ربمـا- ولكنـه لـم يشـعر بوجودهـا رغـم أنهـا كانـت تتقافـز طائـرة حولـه وهـي تغـرّد بنشـيد المسـاء، غيـر أنـه لـم يسـمع فـي أذنيـه إلا الوشـيش المتبقـي مـن صـوت جعيـر محـرّك السـيارة».

50 عاماً في سوريا

:: أنس إبراهيم الدغيم

خمسون عاماً و قلبي لا يفارقهُ.. نوحُ الحمامِ
و لا حزنُ النّواعيرِ

ونحنُ من آمن الدّنيا و أطعمَها .. عامَ الرّمادةِ
من خبزِ التّنانيرِ

خمسونَ عاماً: وبردُ الظّلمِ لم يغادرْ حاراتِ دمشقَ القديمة .

خمسونَ عاماً: وساديّة القوميّة المشبوهة تجرّدُ حجارةَ قاسيون من تاريخها العربيّ.

خمسونَ عاماً: والفراتُ يركضُ دونَ جدوى، وماءُ العاصي يغتالُهُ حزنُ النّواعير.

خمسونَ عاماً: وحنطةُ الجزيرةِ تستجدي على أبوابِ المساجد.

خمسونَ عاماً: والبعثُ يأخذُ بالدّمِ ويعطي بالدّم .. ولا يُبعثون.

خمسونَ عاماً: وطريقُ التّحريرِ غيرُ سالكٍ بسبب تراكم العلوج.

خمسونَ عاماً: وأبو عبيدة يرابطُ عند باب الجابية ولمْ يُكتبْ له الفتحُ بعد.

خمسونَ عاماً: وحمامُ الجامع الأمويّ غائبٌ عن صلاة الجماعة.

خمسونَ عاماً: وأركانُ العرشِ منصوبةٌ على أشلاء المظلومين.. ما مسحَ الملكُ فيها على رأس فقيرٍ، و لا كفكفَ الحاكمُ فيها دمعةَ يتيم.

خمسونَ عاماً: وصحراءُ الوطنِ تضجُّ بالمعتقلاتِ.. و الأرواح، و تكتبُ تفاصيلَها قبراً قبراً.

خمسونَ عاماً: والموتُ العربيُّ –لا الفرنسيُّ– يتجدّدُ في ميسلون.

خمسونَ عاماً: لمْ يعرفْ فيها أطفالُنا.. و لم يشربوا حليباً بطعمِ المجد.

خمسونَ عاماً: ونحنُ نقرأ فاتحةَ الكتابِ على ياسمينِ دمشقَ.. ومجدِ دمشق.

خمسونَ عاماً: والمادّة (٤٩) تُطبّقُ بحقٍّ بردى الشّام.

خمسونَ عاماً: وجيشُنا السّادس عشر.. يرابطُ على أرواحنا، والجولانُ خطُّهُ الأخير.

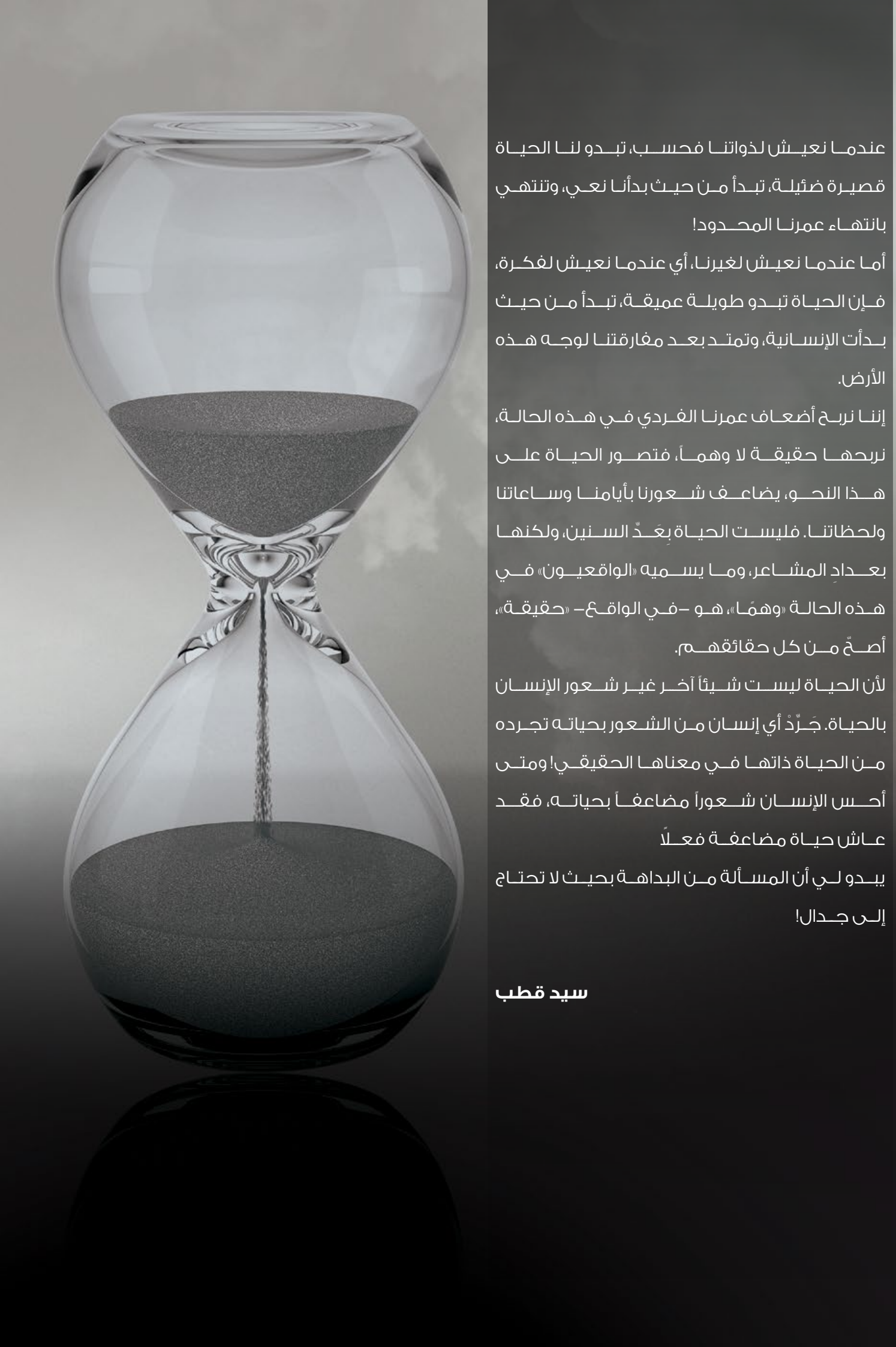

عندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا نعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود!

أما عندما نعيش لغيرنا، أي عندما نعيش لفكرة، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية، وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض.

إننا نربح أضعاف عمرنا الفردي في هذه الحالة، نربحها حقيقة لا وهماً، فتصور الحياة على هذا النحو، يضاعف شعورنا بأيامنا وساعاتنا ولحظاتنا. فليست الحياة بِعَدِّ السنين، ولكنها بعدادِ المشاعر، وما يسميه «الواقعيون» في هذه الحالة «وهمًا»، هو –في الواقع– «حقيقة»، أصحّ من كل حقائقهم.

لأن الحياة ليست شيئاً آخر غير شعور الإنسان بالحياة. جَرِّدْ أي إنسان من الشعور بحياته تجرده من الحياة ذاتها في معناها الحقيقي! ومتى أحس الإنسان شعوراً مضاعفاً بحياته، فقد عاش حياة مضاعفة فعلًا

يبدو لي أن المسألة من البداهة بحيث لا تحتاج إلى جدال!

سيد قطب